الإحالة المرجعية مفهومها وأشكالها في نظر تشومسكي

أ. إبراهيم الكلثم (*)

ملخص البحث

يروم هذا البحث دراسة اعتراض تشومسكي على «الدلالة» من نواحي فلسفية ومنهجية، وأبرز اعتراضاته تمس مسألة «الإحالة المرجعية» التي سنعرض لأطوار تشكلها في بواكير الفلسفة التحليلية الحديثة منذ جون سيتورات ميل وصولًا إلى تايلر بيرج، بتوضيح أهم جوانب فلسفاتهم المتعلقة بمسألة «الدلالة»، والتي سنرى أنها تندرج ضمن ما يسمى «الدلالية الخارجية»، في مقابل رؤية تشومسكي التي قد تندرج ضمن ما يسمى «الدلالية الداخلية». ويتكون البحث من ثلاثة أقسام عامة، أولها يخص استعراض رؤى فلاسفة «الدلالية الخارجية» في مسألة «الإحالة المرجعية» وأهميتها في فهم «معنى» الألفاظ، وثانيها يُبين رؤية تشومسكي الفلسفية والمنهجية العلمية في دراسة اللغة وانتقاده لمفهوم «الإحالة المرجعية» ومسوغات هذا الانتقاد، وأما القسم الثالث أسعى فيه إلى تقديم دعم ونقد؛ فأما الدعم فهو ترجيح موقف تشومسكي من ناحية منهجية عامة تخص شمولية تناول ظاهرة اللغة مقارنة بخصومه، وأما النقد؛ فهو تحفظي على تقليل تشومسكي من علميّة دراسة «استعمال اللغة».

كلمات مفتاحية: إحالة مرجعية – دلالة – فلسفة اللغة – الدلالية الداخلية – الدلالية الخارجية

Abstract:

This research aims to examine Chomsky's objection to semantics from philosophical and methodological perspectives. His most prominent objections pertain to the problem of "Reference," which we will trace through its development in early modern analytical philosophy, starting with John Stuart Mill to Tyler Burge. This includes clarifying key aspects of their

(*) باحث ماجستير، مجمع الملك سلمان العالمي للغة العربية، الرياض، السعودية.

philosophies related to the issue of semantics, which, as we will see, fall under what is referred to as "External Semantics," in contrast to Chomsky's view, which could be categorized as "Internal Semantics."

The research is divided into three general sections. The first section reviews the perspectives of philosophers of "External Semantics" on "Reference" and its importance in understanding the "meaning" of linguistic terms. The second section explores Chomsky's philosophical view and scientific methodology in the study of language, along with his critique of the concept of "Reference" and the justifications for this critique. The third section aims to provide both support and critique: the support involves reinforcing Chomsky's position from a general methodological standpoint, particularly in terms of his comprehensive approach to studying the phenomenon of language compared to his opponents; the critique reflects my reservation about Chomsky's underestimation of the scientific study of "language use."

Keywords: Reference – Semantics – Philosophy of Language – Internal Semantics – External Semantics

«أنتَ لا تعبر النهرَ نفسه مرتين»[١].

١. مقدمة

ما علاقتنا بالعالم الخارجي؟ هل هي علاقة مباشرة؟ أم علاقة غير مباشرة؟ وما موضع اللغة في هذه العلاقة؟ هل تربطنا اللغة بالعالم الخارجي ربطًا مباشرًا؟ تعددتْ إجابات الفلاسفة ورؤاهم منذ الفلاسفة الإغريق وحتى الفلسفة المعاصرة، ومن أبرز النقاشات في الفلسفة التحليلية المعاصرة حول هذه المسألة (علاقة اللغة بالعالم) النزاع بين «الدلالية الخارجية» (External Semantics) و«الدلالية الداخلية» (Internal Semantics)، والنزاع يتمحور حول «معنى» الألفاظ، والعبارات، وكيفية تحديد هذا المعنى.

---

(١) Copleston (1993, p.39). وقارن كذلك Robinson (1987, p.17, p.55).

ولعل مسألة المعنى تنعكس على جميع ما يخص اللغة، وقد تبرز أهميتها مثلًا في المفارقات الفلسفية الكلاسيكية؛ مثل مفارقة هيراقليطس حول عبور النهر، أو مفارقة ثيسيوس التي ناقشها فلاسفة أمثال بلوطرخس وجون هوبز؛ ومفادها: لو أن ربان سفينة ثيسيوس قد شرع في إصلاح سفينته وهي في عرض البحر، واستبدل جميع ألواحها الخشبية –لوحة لوحة– وكان يرمي هذه الألواح في البحر حتى وصلت إلى شاطئ جزيرة وتلقفها أحد الأشخاص هناك، ثم قام هذا الشخص على الشاطئ بنفسه ببناء سفينة من هذه الألواح. السؤال حينها: أيهما سفينة ثيسيوس؟ أهي السفينة التي أعاد الربان بناءها في عرض البحر؟ أم السفينة التي بناها الشخص في الجزيرة؟

وهذه المفارقات تطرح لنقاش مسائل فلسفية عدّة؛ أبرزها مسألة الهوية الشخصية (Personal Identity)، ولكنّها تتعلق أيضًا بمسألة معنى الألفاظ: ما هي سفينة ثيسيوس؟ وكيف يمكننا أن نحدد هذا المعنى؟ أيمكن تحديد المعنى بالاصطلاح والتواطؤ؟ أم ثمة عوامل أخرى تتعلق بمسألة فهم معنى الألفاظ؟

سيركز هذا البحث على مسألة فهم معنى الألفاظ في سياق الفلسفة التحليلية المعاصرة، ويتكون من ثلاثة أقسام عامة، أولها يخص استعراض رؤى فلاسفة «الدلالية الخارجية» في مسألة «الإحالة المرجعية» (Reference) وأهميتها في نظرهم في فهم «معنى» الألفاظ، وثانيها يُبين رؤية تشومسكي الفلسفية والمنهجية العلمية في دراسة اللغة وانتقاده لمفهوم «الإحالة المرجعية» ومسوغات هذا الانتقاد[1]، وأما القسم الثالث أسعى فيه إلى تقديم دعم ونقد؛ فأما الدعم فهو ترجيح موقف تشومسكي من ناحية منهجية عامة تخص شمولية تناول ظاهرة اللغة مقارنة بخصومه، وأما النقد؛ فهو تحفظي على تقليل تشومسكي من علميّة دراسة «استعمال اللغة».

---

[1] من الجدير بالذكر أن «الدلالية الخارجية» كما سنحددها في القسم الثاني من البحث قد يعترض عليها باعتراضات لها أسس ومنطلقات فلسفية مختلفة عن منطلقات تشومسكي، مثلما فعل جون سيرل بناءً على مفهوم القصدية (Searle, 1969)، أو من منطلق المعرفة الذاتية (Boghossian, 1997)، لكن سينصب تركيزي في هذا البحث على اعتراض تشومسكي بشكل أساسي كما سنعرض له في القسم الثالث.

النقاشات عن النزعة الخارجية والداخلية مستفيضة في الفلسفة التحليلية المعاصرة. وهي تتمحور حول مواضيع عدّة، أبرزها التسويغ المعرفي في فلسفة المعرفة (ارجع مثلًا إلى Goldmen, 1979، BonJour, 2002)، ومسائل في فلسفة الذهن والإدراك الحسي (ارجع مثلًا إلى Clark & Chalmers, 1998، Burge, 1985)، وفي والدلالة في فلسفة اللغة، وهذه الأخيرة هي محور تركيز هذه الدراسة. كما هو الحال مع كثير من التصنيفات في الفلسفة، لا توجد أطروحة ثابتة يتفق على تفاصيلها مجموعة من الفلاسفة لها اسم «الدلالية الخارجية» (ارجع مثلًا إلى Burge, 2013)، ولكن الاشتراك في بعض الأسس النظرية سوّغ لدارسي الفلسفة إطلاق هذا الاسم على أطروحات عدد من الفلاسفة التحليليين في النصف الثاني من القرن العشرين، وهذا ما يسوغ كذلك أهمية تحديد المراد بالـ«الدلالية الخارجية» في القسم الثاني من البحث. لعل أساس أطروحات هؤلاء الفلاسفة هو سول كريبكي الذي قدّم أطروحته عن الاسم العلم في كتابه «الضرورة والتسمية» (1980) Kripke (وهي محاضرات أفكارها متداولة في مستهل السبعينات قبل تاريخ نشر الكتاب) وبعده هيلاري بتنام وورقته المهمة «معنى المعنى» (Putnam, 1975) التي ناقش فيها بشكل واضح أهمية العامل الخارجي في تحديد معاني الكلمات. سنعرض لنظرية بتنام كما قدمها في (1975) Putnam، ولكن هناك تطورات على نظرياته ذكرها في ٣ دراسات أساسية، وهي: (1986) Putnam، (1988) Putnam، Putnam (1994)، ولكن في نظرنا، أساسيات رؤيته بقيت كما هي، وتقديم هذه التفاصيل لن يفيد في مناقشة اعتراضات تشومسكي كما سنرى في القسم الثالث من البحث. اعتراضات تشومسكي على النزعة الدلالية وتقديم نظريته الداخلية في الدلالة نراها في مواضع عدّة من كتاباته مثل (1995, 1986) Chomsky، ولكن أوضحها وأكثرها تركيزًا نجده في (2000)Chomsky. ومناقشات الدلالية عند مناصري تشومسكي نجدها مثلًا في عديد من أبحاث بول بيتروسكي وراي جاكندوف في فلسفة اللغة مثل (2002) Jackendoff و (2005, 2015, 2018) Pietrosky، أما مناقشة فلسفة العلم عند تشومسكي فعرض لها باقتدار (2020) Rey و (2023) Colins، وأما مناقشة تشومسكي للتداولية فنجدها مثلًا في (2000) Chomsky.

١. النزعة الدلالية الخارجية والإحالة المرجعية

٢,١ المعنى والإحالة المرجعية

إنّ كلمة «معنى» كلمة عامة، وفي الأدبيات المتخصصة عادةً ما يحاول المتخصصون تجنّب استعمالها إلا من باب التجوّز؛ وذلك لأنهم يقصدون أشياء مختلفة بها، وما الخلاف الذي سنسلّط الضوء عليه في هذا البحث بين الدلالية الداخلية والخارجية إلا مثالًا على الاختلاف بالمراد من «معنى» كما سنرى في تضاعيف البحث. وثمة ثلاثة تمييزات مهمة لا بد من ذكرها لحصر نقاشنا فيما نريده من كلمة «معنى»:

التمييز الأول بين النظريات التأسيسية للمعنى (أو النظريات الميتا–دلالية)، والنظريات الدلالية. رغم أن الأدبيات المتخصصة لا تحرص كثيرًا على التمييز بين النوعين؛ إلا أنهما مهمان لنقاشنا. إنّ النظريات الدلالية هي تلك التي تُعنى بالنظرية الدلالية لنظام رمزي معين، والتي تروم الإجابة عن أسئلة معانٍ محددة ضمن نظام رمزي معين أو لغة معينة، أما النظريات التأسيسية للمعنى فهي تسعى لتفسير ما الذي أفضى بأصحاب ذلك النظام الرمزي المعين أو اللغة المعينة إلى أن تمتلك لغتهم ما امتلكته من معنى (Speakes, 2024).

وقد نضرب مثلًا بغير اللغة لتوضيح الفرق بين النظريات التأسيسية للمعنى والنظريات الدلالية بعالم إناسة متخصص بدراسة عادات الأكل عند الشعوب (السابق). فمما قد يفعله عالم الإناسة هو وصف عادات الأكل عند قبيلة معينة، وإدراج هذه العادات ضمن تصنيفات معينة؛ فهو من هذا الوجه مماثل لصاحب النظرية الدلالية الذي يسعى إلى دراسة أنواع المعاني في لغة معينة، وإدراج معاني الكلمات والتعابير المختلفة ضمن هذه الأنواع والتصنيفات. أما لو سعى عالِم إناستنا هذا إلى دراسة طبيعة عادات الأكل نفسها، مثل أن يدرس ما سبب أن عادات معينة تملكها تلك القبيلة أو ذلك الشخص، ولمْ تمتلك غيرها؟ أو ماذا يوجد في هذه القبيلة الذي أفضى بها إلى امتلاك هذه العادات دون غيرها؟ فعالِم الإناسة من هذا الوجه مماثل لصاحب النظرية التأسيسية للمعنى الذي سيطرح أسئلة تخص ما الأسباب التي قادت أي لغة كانت إلى

اكتساب هذا النظام من المعاني. وكما سيتضح من تضاعيف النقاش، إنّ بحثنا يهتم بالنوع الثاني من النظريات (النظريات التأسيسية في المعنى) وليس النظريات الدلالية. ولعلي أوجز وأقول: إنّ بحثنا يهتم بطبيعة المعنى من حيث هو كذلك، وليس بالدراسة التصنيفية للمعاني في لغات معينة.

يتعلق التمييز الثاني الذي قدّمه فريغه (Frege, 1892) بين الإحالة المرجعية (Reference) والتصوّر (Sense)، وهو تمييز سنعود إلى نقاشه أدناه، ولكن يكفينا في هذا المقام أن نعرف أن «الإحالة المرجعية» هي العلاقة بين الكلمات والأشياء في العالم، والتصوّر هو الصورة الذهنية لدى الناس عن ذلك الشيء، أو الوجه الذي يقدّم فيه الشيء المحال إليه (Referent).

التمييز الثالث هو التمييز بين نزعتين في معاملة مسألة الدلالة: الدلالية الداخلية والدلالية الخارجية. إنّ النزعة الداخلية والنزعة الخارجية في الفلسفة لا تنحصران في دراسة الدلالة، بل نراه كذلك في فلسفة المعرفة في مسألة التسويغ المعرفي (ارجع مثلًا إلى Goldmen, 1979، و BonJour, 2002)، ومسائل في فلسفة الذهن والإدراك الحسي (ارجع مثلًا إلى Burge, 1985،Clark & Chalmers, 1998)، ورغم تداخل بعض جوانب هذه المسائل في مسألة الدلالة؛ إلا أننا بطبيعة الحال سنحصر نقاشنا في فلسفة اللغة في مسألة الدلالة: أهي خارجية أم داخلية. وثمة اختلافات ضمن النزعة الخارجية نفسها، واختلافات ضمن النزعة الداخلية نفسها كذلك؛ بل قد يساءل بعض من يصنف ضمن هذه النزعة أو تلك دقة اسم هذه النزعات (Burge, 2013) لذلك ينبغي أن نعرّف مرادنا بالنزعة الخارجية والنزعة الداخلية، وهو ما سنراه أدناه بالتفصيل، ولكن نكتفي في هذا المقام بالقول إن الدلالية الخارجية ترى أنّ البيئة الخارجية تساهم في تحديد المعاني، والدلالية الداخلية ترى إنّ المعاني يحددها عوامل داخلية في ذهن الشخص. إنّ السؤال يتعلق بالمعنى اللغوي: أهو في ذهن المتكلم؟ أم في العالم الخارجي؟

٢,٢ الاسم العلم والإحالة المرجعية: توطئة لأرضية النزاع حول الدلالة

تقوم «الدلالية الخارجية» على إرث من النقاشات في سياق الفلسفة التحليلية وتاريخ الفكر الأنجلوسكسوني عمومًا. فالرؤى التي قدمها فلاسفة الدلالية الخارجية (أمثال

بتنام، وكريبكي كما سنرى أدناه) تعرض صراحة إلى نقاشات سابقة مرتبطة بالإحالة المرجعية قدمها فلاسفة أبرزهم جون ستيوارت ميل، وغوتلب فريغه، وبرتراند راسل (Kripke, 1980, Putnam, 1975). ويمنحنا التعريج على هذه الأفكار استيعابًا أشمل للسياق الذي وردت فيه.

مفاد رؤية جون ستيورات ميل أن الأسماء تشير فقط، ولا معنى لها، ويشار لها عادةً بالعبارة الموجزة في الإنجليزية «Names denote and does not connote» والتي تعني أن الأسماء تحيل إلى أشياء في العالم الخارجي، ولكن ليس لها ارتباطات دلالية. واستخدم مثال بلدة «دارتموث» (Dartmouth)، وهي بلدة جنوب إنجلترا. فالجزء الأول من الكلمة (Dart) تشير إلى نهر (دارت) و(Mouth) تشير إلى مصب النهر، وكأن اسم البلدة اشتق من كونها بقرب مصب نهر دارت، ولكن مغزى ميل أن مَن يستعمل هذا الاسم قد لا يعلم معنى هذا الاسم، ولا يفكر فيه (وقد يكون ذلك الأغلب)؛ ففي نظره الاسم يشير فقط، ولا معنى له (Mill, 1843).

ويصح أن نعدَّ رؤية غوتلب فريغه (Frege, 1892) ردَّ فعل على نظرية ميل في الاسم العلم؛ ففي نظر نظرية ميل –مثلًا– إنّ الاسم "ليونيل ميسي" تحيل إلى ليونيل ميسي[1]، و"جبل إيفرست" تحيل إلى جبل إيفرست، ولكن نظرية فريغه تختلف عن نظرية ميل من ناحية أن دلالة الاسم العلم منوطة بمعرفة توصيفاته، وهو ما يشير إليه فريغه بالـ«Sinn» (بالألمانية) أو «Sense» (بالإنجليزية)، وما سنترجمه بـ«التصور». مثلًا هذا التوصيف: «أستاذ الإلكسندر الأكبر»؛ تحدد الاسم العلم "أرسطو"، وهذا التوصيف «خامس خلفاء بني أمية»؛ تحدد الاسم العلم "عبد الملك بن مروان".

والمثال الشهير الذي قدمه فريغه في دراسته «التصور والإحالة المرجعية» (Frege, 1892) يوضح هذا التمييز بالغ الأهمية في نقاشنا: ما الإحالة المرجعية للاسم العلم «نجم الصباح» (نجم يظهر في الصباح قبل شروق الشمس بساعة تقريبًا) والاسم العلم

---

[1] أتبع في هذا البحث عرف أدبيات فلسفة اللغة التحليلية من ناحية التمييز بين الاسم والمحال إليه: الكلمة بين علامتي تنصيص المقصود بها الاسم، أما من دونها فإشارة إلى الشيء ذاته. ارجع مثلًا إلى Lycan (2018).

«نجم المساء» (نجم يظهر في المساء بعد مغيب الشمس بساعة تقريبًا)؟ لهما الإحالة المرجعية نفسها وهي كوكب الزهرة، ولكن تصورهما مختلف؛ فهما يحيلان إلى الشيء نفسه، ولكن من وجهين مختلفين. مثال آخر نجده مع التالي: «٦» و«٣+٣»؛ فكلاهما يحيلان إلى الرقم نفسه، ولكن من وجهين مختلفين. وهذا هو ما حاول فريغه أن يشدد عليه ويرى أن لعبارة «نجم الصباح هو نجم المساء» –حسب عبارته– «قيمة إدراكية» (السابق) سعى إلى إبرازه عبر مفهوم «التصور».

تعتمد نظريتا ميل وفريغه كلاهما على مفهوم «الإحالة المرجعية»، فالاسم يحيل مرجعيًا إلى شيء في العالم الخارجي، ولكن الاختلاف الأساسي بين الرؤيتين أن فريغه قدّم مفهوم «التصور» الذي عنى به «وجه تقديم» ما تُحيل إليه الإحالة المرجعية. إذن، رؤية فريغه ترى أن معنى الأسماء العلم يتكون من عنصرين: «الإحالة المرجعية»، و«التصور»، والتوصيف هو تصور الاسم، وبناءً على هذا التصور يتحدد معنى الاسم وإحالته المرجعية.

أحد الاعتراضات على تقديم مفهوم التصور هو أن هذه التوصيفات المقدمة ليستْ من ضمنْ معنى الاسم العلم؛ فهي مجرد أدوات بيداغوجية (يُمكن استعمالها أو استعمال الإشارة بدالها إنْ أمكن ذلك) لتعليم الاسم، وبعد معرفة الاسم؛ فلا حاجة لها. فهب لو أن أحد التوصيفات المذكورة للاسم العلم "أرسطو" قد ثبت بطلانها، مثل أن يثبت أحد علماء التاريخ بالدليل الذي لا شك فيه أن أرسطو ليس معلم الأسكندر الأكبر؛ فهل يعني ذلك أن "أرسطو" لا تحيل إلى أرسطو؟ القول بذلك يبدو بعيدًا عن الصحة. إذن، هذا الانتقاد يقودنا إلى الرأي القائل إنّ أسماء الأعلام لا «تصور» لها، وإنما لها إحالة مرجعية فقط (Searle, 1958, p.168).

طوّر جون سيرل (Searle, 1958) نظرية فريغه وأجاب عن الإشكال السابق من ناحية أن مفهوم «التصوّر» عند فريغه –ونفهمه هنا بوجود توصيف واحد يحدد الاسم العلم– غير كافٍ في الإشارة إلى الاسم العلم، ورأى أن الاسم والتوصيف كلاهما يشيران إلى الشيء، وإنما الفرق بينهما أن الاسم يشير دون سمات تحدد الشيء (ويفترض مسبقًا وجود سمات دون تحديدها)، بينما التوصيف يشير إلى الشيء مع

توضيح هذه السمات، ورأى أن الحل في عدم الاكتفاء بتوصيف واحد، بل يجب وجود «مجموعة» من التوصيفات المفترضة مسبقًا غير محددة العدد التي تحدد ما يشير إليه الاسم؛ فمثلًا بإضافة «تلميذ أفلاطون»، و«فيلسوف يوناني» إلى «أستاذ الإلكسندر الأكبر»؛ تحدد إحالة "أرسطو"، وبإضافة «رابع فقهاء المدينة في القرن الأول الهجري»، و«المؤسس الثاني للدولة الأموية» إلى «خامس خلفاء بني أمية»؛ تحدد إحالة "عبد الملك بن مروان".

إنّ حل سيرل للإشكالية المذكورة أعلاه مفاده أن وجود التوصيف ضروري للاسم، ولكن مع تعديل بالغ الأهمية: توجد توصيفات غير محددة الماهية والعدد تُفترض مسبقًا للاسم العلم، وإنْ أُثبِت وجود توصيف واحد خاطئ؛ فمعنى ذلك أن توصيفًا واحدًا خاطئ، ولا يعني ذلك خطأ جميع التوصيفات الأخرى. إنّ الاسم والتوصيف كلاهما يشيران إلى الشيء في العالم الخارجي، ولكن الأول دون تحديد سمات معينة، أما الثاني فمع تحديد سمات معينة، وكما يقول «... رغم أن الأسماء العلم عادةً لا تقرر أو تحدد أي سمات؛ إلا أن استعمالاتها الإحالية تفترض مسبقًا أن الشيء الذي يشير إليه الاسم له صفات معينة» (ص١٧١). لقد جمع سيرل بين النظريتين من ناحية أن الاسم دون توصيف يشير إلى الشيء، ولكن التوصيفات مضمرة فيه حتى وإنْ لم تحدد، حيث يقول: «هل الاسم العلم له تصور؟ إذا كان السؤال يدور حول ما إذا كانت الأسماء العلم تستعمل لوصف أو تحديد صفات الأشياء؛ فالإجابة: لا، أما إن كان السؤال يدور حول ما إذا كانت الأسماء العلم مرتبطة منطقيًا بصفات الشيء الذي تشير إليه؛ فالإجابة: نعم، بمعنى فضفاض» (ص١٧٣).

٢,٣ الإحالة المرجعية للاسم العلم والنوع الطبيعي وغير الطبيعي

قدّم كريبكي نقدًا لنظرية ارتباط معنى الاسم العلم بالتصور في محاضراته في سبعينات القرن العشرين، ونشرتْ في كتابه الشهير «التسمية والضرورة» (Kripke, 1980)؛ إذْ انتصر إلى ما قد يُعدُّ نسخة مطورة من النظرية الأقدم (نظرية ستيوارت ميل).

لقد نقد كريبكي ارتباط التصور بالاسم العلم كما قدمه فريغه وأتباعه بناءً على منطق الموجهات (Model Logic)، ومنطق الموجهات يتعلق بالضرورة والإمكان، ويتم عرض

ذلك من ناحية مفهوم «العالم الممكن» (Possible world)، وهو تصور شامل عن العالم، وما قد يكون عليه العالم، وعادةً ما يستعمل هذا المفهوم في المنطق للتفريق بين ما هو ضروري وما هو ممكن بقولهم إنّ القضية الضرورية هي التي تكون صحيحة في جميع العوالم الممكنة، وأما القضية الممكنة فهي القضية التي تكون صحيحة في بعض العوالم الممكنة. فمثلًا في العالم الفعلي (وهو أحد العوالم الممكنة) أنا باحث في فلسفة اللغة واللغويات، ولكن في أحد العوالم الممكنة قد أكون لاعب كرة، وبدلًا من كتابتي لهذه الكلمات الآن، فأنا أتمرن لمباراة فريقي مع ريال مدريد. كوني باحثًا في المجال اللغوي صحيحة في بعض العوالم الممكنة، وليس كلها؛ ولذلك فهي حقيقة ممكنة وليست ضرورية. لكن هذا لا ينطبق على القضية التالية: ٣ + ٣ = ٦، أو إذا قلنا إنّ س أكبر من ص، وص أكبر من ز؛ فإنّ س أكبر من ز؛ فـ ٣ + ٣ ستساوي ٦ في جميع العوالم الممكنة، وليس بعضها، وإذا كانت س أكبر من ص، وص أكبر من ز؛ فإنّ س أكبر من ز في جميع العوالم الممكنة، وليس بعضها؛ ولذلك هي ضرورية وليست ممكنة[١]. فحسب كريبكي، نقول إنّ القضية الضرورية هي القضية التي تصح في جميع العوالم الممكنة، والقضية العرضية الصحيحة هي التي تصح في بعض العوالم الممكنة، والعوالم الممكنة تشمل عالمنا الفعلي. فنقول إنّ العبارة العرضية الصحيحة هي العبارة الصحيحة في العالم الفعلي، ولكن خاطئة في عالم آخر ممكن غير الفعلي.

قدّم كريبكي نقده بناءً على مفهوم العوالم الممكنة، وبيانه لإشكالية أن التصور يحدد معنى الاسم العلم؛ إذْ يلزم من النظرية الوصفية للاسم العلم أن تعتقد بمعتقدين: أن الاسم العلم في علاقة تحليلية (Analytic) مع توصيفه، وأن معرفته ستعد معرفةً قبلية (A Priori؛ أي لا تتطلب التحقق التجريبي لتأكيدها). فمثلًا، ستعدّ العبارة (١) عبارة

---

[١] نشدد على أن «العالم الممكن» مفهوم ضمن منطق الموجهات، وليس مفهومًا ضمن النظرية الفيزيائية، كما أن المفهوم المتبنى عند كريبكي هو المفهوم الشائع في أدبيات فلسفة اللغة كما ذكرناه أعلاه، ثمة جدالات ميتافيزيقية حول وجود «العالم الممكن» غير العالم الفعلي، ولكن هذا الجدال لا يعنينا. ارجع للاستزادة في الموضوع إلى Girle (2003) و Hughes & Cresswell (1996).

تحليلية؛ أي إنها تفهم بناءً على معاني كلماتها مثل (٢)، فيفترض إذن أن (٣) مرادفة لـ (٤):

(١)أرسطو هو معلم الإسكندر الأكبر.

(٢)الأعزب هو غير المتزوج.

(٣)أرسطو هو أرسطو

(٤)معلم الإسكندر الأكبر هو معلم الإسكندر الأكبر.

وكما أشار كريبكي، جميع القضايا التحليلية هي قضايا تصح في جميع العوالم الممكنة؛ أي إنها قضايا ضرورية. إذن، يقتضي أن (١) قضية ضرورية. وبما أن (٣) و(٤) قضيتان قبليتان (أي لا تستلزم معرفة تجريبية للقول بصحتها)، وبما أن (١) تعبر عن القضية نفسها المعبر عنها في (٣) و(٤)؛ فذلك يلزم منه أن (١) قبلية كذلك.

ومغزى تحليل كريبكي واضح؛ فهو من باب برهان الخلف الذي يروم بيان أن ما يلزم من نظرية التصور لا يصح قبوله؛ إذْ يظهر من التحليل أعلاه أن (١) هي قضية تحليلية (أن أرسطو هو بالضرورة معلم الإسكندر الأكبر في جميع العوالم الممكنة؛ أي أن أرسطو هو بالضرورة معلم الإسكندر الأكبر)، كما أن معرفتي بها معرفة قبلية (إذْ أعرف أن أرسطو هو معلم الإسكندر الأكبر دون تحقق تجريبي؛ أي دون خبرة ومعرفة في العالم)، وكما يرى كريبكي، خطأ ذلك اتضح بعد هذا التحليل؛ فثمة عوالم ممكنة لا تصح فيها (١)؛ إذْ من الممكن ألا يكون أرسطو معلم الإسكندر الأكبر، كما أن معرفتي بـ(١) تتطلب تحققًا تجريبيًا أو خبرة معرفية لأعرف أن أرسطو هو معلم الإسكندر الأكبر؛ فمعرفتي بها معرفة بعدية (posteriori) وليست قبلية.

ويواصل كريبكي موضحًا كذلك إشكالية ربط الاسم العلم بالتصور من ناحية المعلومات الخاطئة التي تربط أحيانًا باسم معين. فمثلًا، نعرف أن قصيدة «لاعب النرد» لمحمود درويش، فنقول إنّ محمود درويش هو مؤلف قصيدة «لاعب النرد». لكن افرض لو أن محمود درويش كان قد سرق هذه القصيدة كما هي من شاعر متوفى اسمه خالد السعدي؛ فالحقيقة أن خالد السعدي هو مؤلف قصيدة لاعب النرد. فهل

يصح في هذه الحالة أن نقول إنّ "محمود درويش" لا يحيل إلى محمود درويش لأنه ليس المؤلف الحقيقي لقصيدة لاعب النرد؟ لا يبدو هذا صحيحًا.

يخلص كريبكي إلى أن القضايا المعبر عنها في جمل مثل (١) هي قضايا عرضية (وليست ضرورية)، وبعدية (وليست قبلية)، وتركيبية (وليست تحليلية). وعليه، لا يلزم لفهم الاسم العلم واستخدامه أن يُربط بتصور، كما أن الاسم العلم له إحالة مرجعية، ولا حاجة لتوسط التصور؛ فالاسم العلم يحيل مباشرة إلى الشيء، ولذلك سميت نظريته «نظرية الإحالة المرجعية المباشرة» للاسم العلم (Direct Reference Theory)، ويطلق كريبكي اسم «المحدد الجامد» (Rigid Designator) على الاسم الذي يحدد الشيء نفسه في جميع العوالم التي يوجد فيها ذلك الشيء، فقارن مثلًا بين (٥) و(٦).

(٥)ليونيل ميسي.

(٦)الفائز بالكرة الذهبية في كأس العالم ٢٠٢٢.

إنّ ليونيل ميسي هو الفائز بالكرة الذهبية في كأس العالم ٢٠٢٢ في عالمنا الفعلي، وقد يوجد عالم ممكن الفائز بالكرة الذهبية في كأس العالم ٢٠٢٢ ليس هو ليونيل ميسي، لكن هل يوجد عالم ممكن ليونيل ميسي ليس هو ليونيل ميسي؟ لا يبدو هذا صحيحًا. إذن، (٦) ليست محددًا جامدًا، أما (٥) فهي محدد جامد.

إذن، يصح القول إجمالًا إنّ كريبكي داعمٌ للدلالية الخارجية من هذا الوجه: القول إنّ الاسم العلم يتكون من الإحالة المرجعية، وأن الاسم يحيل إحالة مباشرة إلى الشيء دون توسط التصوّر.

***

وبناءً على ما انتهى إليه كريبكي، ورفضًا لمجال الدلالة كما وصل من فريغه؛ سعى هيلاري بتنام إلى توسيع نطاق الدلالة من الاسم العلم إلى النوع الطبيعي (Natural Kind) دون الاتكاء على ما سماه «النظرية التقليدية للمعنى» (أو ما يصح تسميته «النظرية الوصفية النفسية»). والمقصود بالـ«النوع الطبيعي» هو الأشياء في العالم الطبيعي (مثل الماء، والنار، والأشجار) مقارنة مع «النوع غير الطبيعي» أو «الاجتماعي» التي هي من صنع البشر (مثل المال، والمهن الوظيفية، والمواطنة)

(قارن مثلًا مع Khalidi, 2013). ففي نظر بتنام، ينتمي شيئان للنوع الطبيعي نفسه إذا كان لهما الطبيعة نفسها، و«أن يكون لهما الطبيعة نفسها» هي مقولة تفهم ضمن ما يقوله العلم الطبيعي، وليست مفهومًا ميتافيزيقيًا.

يستشكل بتنام في الصفحات الأولى من ورقته المؤثرة «معنى المعنى» (Putnam, 1975) صياغة الفلاسفة للمعنى اللغوي، ويشدد على أن التمييز بين المفهوم (Intension) والماصدق (Extension) هو أساس الإشكال من حيث إنّ المفهوم يحدد ما صدقاته، وفهم المفهوم معناه أن تكون في حالة نفسية معينة. ولم يسلم في ذلك – في نظره– حتى فريغه الذي شدد على أن المعاني خاصية عامة (كما يظهر في اصطلاحه للصورة الذهنية (concept))؛ حيث إنّ فهم هذه المعاني ما زال فعلًا فرديًا، ويقول «لم يشك أيٌّ من هؤلاء الفلاسفة أن فهم كلمة (أي معرفة مفهومها) كان مجرد كونك في حالة نفسية معينة (مثلما أن معرفة حساب الأرقام في ذهن الفرد ليست إلا كونك في حالة نفسية معقدة)» (ص٦).

لقد عدَّ بتنام معارضة فريغه للنزعة النفسية في فهم المعنى تقتصر على كونها «معارضة لمساواة الصورة الذهنية بالمعيّنات (particulars) الذهنية، وليس بالكيانات (entities) الذهنية عمومًا» (ص٩). ويلزم من نظرية الفلاسفة الذي نسجوا على منوال فريغه في فهم المعنى استحالة أن يكون شخصان في الحالة النفسية نفسها من جميع الجوانب ويفهمان ما تدل عليه كلمة (س) فهمًا مختلفًا؛ فحالة المتحدث النفسية تحدد المفهوم، والمفهوم يحدد الماصدق. إنّ تصور الفلاسفة التقليدي لفهم المعنى الذي ينقده بتنام يُمكن أن يُقدّم كما في الشكل (١):

الشكل (١)

الحالة النفسية --- > المفهوم --- > الماصدق

حيث يمر المتحدث بحالة نفسية معينة، وهذه الحالة النفسية المعينة تحدد المفهوم، والمفهوم بدوره يحدد الماصدق. ولدحض هذا التصور، يقدّم بتنام تجربته الفكرية المعروفة باسم «الأرض التوأم» من خلال ضربة للماء مثالًا للنوع الطبيعي. تصوّر وجود أرض أخرى مطابقة لكوكب الأرض، اسمها «الأرض التوأم» (Twin Earth)،

وهي مطابقة لجميع الجوانب للأرض إلا من ناحية واحدة: الماء في الأرض هو ذرة من الأوكسجين وذرتين من الهيدروجين (H_2O)، أما في الأرض التوأم فهو يتكون من مركب كيميائي هو «س ص ز»، وهذا المركب لا يختلف عن مظهر الماء واستعمالاتها لدينا؛ فالبحار والأنهار مكونة منه، ويشربه بشر «الأرض التوأم» ليرووا عطشهم، ويغلي عند الدرجة نفسها التي يغلي فيها ما يسمى ماء في كوكب الأرض، كما أن سكان الأرض التوأم يطلقون على «س ص ز» اسم «الماء». السؤال الذي يطرحه بتنام: هل «س ص ز» هو نفسه «ذرة من الأكسجين وذرتين من الهيدروجين»؟ الإجابة هي: لا. في نظر بتنام إذن، «الماء» في الأرض و«الماء» في الأرض التوأم مشتركٌ لفظي: لهما الصوت نفسها، ولكن معناهما مختلفة.

ولكن ما الهدف من تقديم هذه التجربة الذهنية؟ تتضح مرامي بتنام إذا وضعنا هذه التجربة الذهنية إزاء ما ذكرناه أعلاه: إنْ كان المعنى يتحدد كما هو في الشكل (١)، وأتينا بشخص من كوكب الأرض وثانٍ من كوكب الأرض التوأم، وكانا في الحالة النفسية نفسها، وفي المكان نفسه، ولهما اللغة واللهجة نفسها من جميع الجوانب حتى أدق التفاصيل؛ فإنّ معنى عبارة «السمك يعيش في الماء» مختلف للشخصين؛ فبالنسبة للأرضي، دلالته المرجعية للماء ذرتين من الهيدروجين وذرة من الأوكسجين، أم ساكن الأرض التوأم فدلالة الماء المرجعية هي «س ص ز». الشخصان لهما نفس الحالة النفسية، ولكن «الماصدق» مختلف. إذن، يصل بتنام إلى أن الصورة التي تبناها الفلاسفة التقليديون بالقول إنّ المعنى يتحدد بالمفهوم، وهذا المفهوم تحدده الحالة النفسية للمتحدث قول خاطئ.

إذن، النتيجة التي انتهى إليها بتنام هي نتيجة تدعم الدلالية الخارجية كما عرفناها في المقدمة أعلاه، ولكن بصياغة أدق: الإحالة المرجعية لألفاظ النوع الطبيعي يحددها طبيعة العالم الخارجي، وليست المفاهيم والتصورات الداخلية لمتحدث اللغة. المتحدث في الأرض ونسخته المطابقة في الأرض التوأم يحيلان بلفظة «ماء» إلى شيئين مختلفين رغم عدم وجود اختلاف في مفهومهما، ولا في حالتهما النفسية.

***

ويشير بتنام في هذا السياق إلى ما سمّاه «تقسيم العمل اللغوي» (Linguistic division of labor)، مستوحيًا مفهوم «تقسيم العمل» من مجال الاقتصاد. مثلما أن السلعة يشارك في العمل عليها أكثر من شخص وعامل (وقد يجهل عامل كنه ما يعمل عليه عامل آخر)؛ فكذلك الأمر في معاني اللغة، فتحديد معاني ألفاظ النوع الطبيعي ستحددها فئات مختلفة من المجتمع، وقد لا يعلم جميع الناس هذه المعاني؛ ففي حالة الماء سيكون علماء الكيمياء والعلماء المتخصصون، وفي حالة «الأسد» –مثلًا– سيحدده علماء الأحياء، وعلى ذلك فقس.

وقد وسّع الفيلسوف تايلر بيرج هذه النزعة الدلالية الخارجية (ضمن اهتمامات أخرى له، مثل اهتمامه بالإدراك الحسي Perception) مستفيدًا من هذا الجانب الاجتماعي الذي أشار إليه بتنام ليشمل حتى ألفاظ أشياء أخرى غير النوع الطبيعي. فما دام أن فئة متخصصة هي التي تحدد دلالة لفظة معينة، فلمَ لا تكون معاني ألفاظ أخرى غير النوع الطبيعي (مثل المصنوعات، والمال، إلخ) تحددها الأعراف الاجتماعية، وممارساتها، وسياقها اللغوي والاجتماعي؟ وهذه النظرة تتلاءم مع فلسفة بيرج الخارجية عمومًا (وليست الدلالية فقط) التي ترى أن فهم دلالة الأشياء (الطبيعية وغيرها) لن يفهم فهمًا تامًا بالحالات الذهنية للفرد فقط، بل لا بد أن تأخذ في حسبانها الأبعاد الاجتماعية، وهو التوجه الذي يسميه «ضديد الفردية» (Anti–individualism).

ويضرب بيرج مثلًا لذلك بمثال «التهاب المفاصل» (arthritis) (Burge, 1979). فهبّ لو أن شخصًا (لنسمّه أحمد) ذهب إلى طبيب وفي اعتقاده أن «التهاب المفاصل» ألم ينطبق على المفاصل وعلى العضلات، وأشار إلى الطبيب وقال «أشعر بألم مفاصل في فخذي» فسيكون قوله خاطئًا، وسيصحح له الطبيب قائلًا: «ألم المفاصل لا يصيب إلا المفاصل». فدلالة «التهاب المفاصل» حددها الأطباء والمتخصصون، واستعمال أحمد للفظة هو استعمال خاطئ لأنه لم يتقيد بهذا المعنى المحدد.

***

١,٤ المبدأ الأساسي للدلالية الخارجية

الجدول (١)

اسم الفيلسوف	الإسهام النظري	مفادها
جورج ميل	النظرية البسيطة للاسم العلم	الاسم العلم يحيل إلى مسماه فقط، ولا دلالة (معنى) له
غوتلب فريغه	النظرية التصورية للاسم العلم	الاسم العلم له مستويان من المعنى: الإحالة المرجعية والتصور
سول كريبكي	نظرية الإحالة المباشرة للاسم العلم	الاسم العلم له إحالة مرجعية والتصور لا يرتبط به

		ارتباطًا ضروريًا
هيلاري بتنام	معنى ألفاظ النوع الطبيعي	معاني ألفاظ النوع الطبيعي تتحدد عن طريق عوامل خارج الذهن
تايلر بيرج	معنى ألفاظ النوع غير الطبيعي	معاني ألفاظ النوع غير الطبيعي تتحدد عن طريق عوامل خارج الذهن

رأينا في هذا القسم تغيّرات رؤى الفلاسفة في سياق الفلسفة التحليلية (منذ جورج ستيوارت ميل وحتى تايلر بيرج) في فهم مسألة معنى الألفاظ (ملخص في الجدول (١)) وكيف أفضتْ إلى صياغة محددة للدلالية الخارجية من ناحية التركيز على مفهوم الإحالة المرجعية، وكان أساس هذه النقاشات هو الاسم العلم، وإنْ كان له معنى أم لا، ورأينا بعدها التحول المحوري الذي قدّمه فريغه بتقديم مفهوم «التصور» بالإضافة إلى «الإحالة المرجعية»، ثم انتقلنا إلى كريبكي الذي استفاد من أدوات منطق الموجهات في خدمة رؤيته أن توصيفات الاسم العلم عرضية للاسم العلم، والاسم يحيل إحالة ضرورية إلى صاحب الاسم إحالة مباشرة، وفي هذا انتصار للنزعة الدلالية الخارجية من ناحية الإحالة المباشرة دون الحاجة إلى توسط التوصيفات أو التصورات الذهنية، وبعدها عرجنا على بتنام الذي قدّم رؤيته حول ألفاظ النوع الطبيعي ورؤيته في أهمية حضور الجانب الاجتماعي و«تقسيم العمل اللغوي» لتحديد الإحالة المرجعية لألفاظ النوع الطبيعي، وأن المحيط الخارجي يؤدي دورًا في تحديد دلالة ألفاظ النوع الطبيعي، بصرف النظر عن حالة الفرد النفسية، وأخيرًا رأينا بيرج الذي وسّع النزعة الدلالية الخارجية لتشمل ألفاظ أشياء أخرى غير النوع الطبيعي.

وإجمالًا، يصح أن نصوغ المبدأ الأساسي للدلالية الخارجية مستفيدين من رؤى الفلاسفة التي عرضناها في هذا القسم كما يلي:

المبدأ الأساسي للدلالية الخارجية: تقوم الدلالية الخارجية على مفهوم الإحالة المرجعية، وهي علاقة بين ألفاظ اللغة والأشياء في العالم الخارجي مستقلة –على أقل

تقدير– استقلالًا جزئيًا عما هو ذهني، وهذه الإحالة المرجعية ثابتة بين الاسم والشيء في جميع السياقات اللغوية.

٢. اعتراض تشومسكي على مفهوم «الإحالة المرجعية»

٣,١ تشومسكي والإحالة المرجعية

سأركز في هذا القسم على تقديم اعتراض تشومسكي على مفهوم «الإحالة المرجعية» ومسوغات هذا الاعتراض، ولفهم أوضح لوجهة نظر اعتراضه لا بد لنا من فهم منطلقاته ومنهجيته في دراسة ظاهرة اللغة، وما هو مفهومه للغة (٣,٢)، ثم سنعرض للإشكاليات التي يثيرها مفهوم «الإحالة المرجعية» في نظره وما حلّه المقترح لذلك (٣,٣).

يُعرف تشومسكي في مجال اللغويات بتنظيره في علم التركيب (Syntax) والنظرية اللغوية عمومًا (ارجع مثلًا إلى Chomsky 1957, 1965, 1995)، ولكنه كذلك ناقش عديدًا من المسائل الفلسفية ذات الصلة باللغة والذهن والعلم في عديد من كتبه (ارجع مثلًا إلى Chomsky 1966, 1975, 1980 1986)، ومما تتضمنه هذه النقاشات انتقاده الصارم لمفهوم الإحالة المرجعية. وكما رأينا في القسم الأول، رغم الاختلافات بين الفلاسفة في تقليد الفلسفة التحليلية منذ جون ستيوارت ميل وحتى تايلر بيرج؛ إلا أنه يصح القول على أنهم متفقون على مفهوم الإحالة المرجعية؛ فالإحالة المرجعية عنصر من عنصرين يكونان المعنى حسب فريغه ومن نسج على منواله في تبني التوصيفات، كما أن هذا المفهوم محوري للنزعة الدلالية الخارجية –كريبكي وبتنام على وجه التحديد– كما عرضناها في القسم الثاني من البحث. ولعل تشومسكي يتفق مع رفض فلاسفة الدلالية الخارجية للنظرة التقليدية في فهم المعنى، ولكنه يختلف معهم في وجه الاعتراض، ويختلف معهم اختلافًا كبيرًا كذلك في الرؤى التي قدموها؛ خصوصًا تلك التي تتعلق بالإحالة المرجعية.

ومن الجدير بالذكر قبل تناول اعتراض تشومسكي أن نتطرق إلى لمحة موجزة عن تطور علاقته مع هذا المفهوم في نموه التنظيري في اللسانيات والفلسفة عمومًا. نجد في أول كتبه «البنى التركيبية» (Chomsky, 1957) نوعًا من التقبل لمفهوم الإحالة

المرجعية على هامش مباحث الكتاب؛ إذْ يقول «يحاجج غودمان –وفي نظري أنه حجاج مقنع– بقوله إنّ معاني الكلمات يصح أن تختزل –على أقل تقدير جزئيًا– إلى الإحالة المرجعية للألفاظ المضمنة في هذه الكلمات» (ص١٠٣)، ولكن يبدو أن تبنيه لهذا الرأي قد خفتْ مع تقدّم الزمن، وبات يرفض مفهوم الإحالة المرجعية كما يفهمه فلاسفة الدلالية الخارجية كما نرى مثلًا بشكل صريح ومفصل إلى حد بعيد في «آفاق جديدة في دراسة اللغة والذهن» (Chomsky, 2000)، ولكنه قد يفهم الإحالة المرجعية فهمًا مختلفًا عن فهم الدلالية الخارجية، ويعدّها مفهومًا تركيبيًا (كما في نظرية الربط Binding Theory، ارجع مثلًا إلى Chomsky, 1981) بوصفها علاقة بين الألفاظ وكيانات داخلية من نوع ما في المجال الإدراكي (Chomsky, 2000, pp.37–39).

سئل تشومسكي في إحدى محاضراته التي قدمها في الهند عن علم الدلالة، وأجاب بما يلي:

«[...] علينا أن نسأل ما هي الدِلالة؟ إذا كان المقصود ما هو مذكور في البحوث التقليدية (مثل بحوث بيرس أو فريغه) أو من ينسج على منوالهما؛ بمعنى إذا كان المقصود بالدِلالة العلاقة بين الصوت والشيء فربما لا وجود لها [...] أعتقد بأن هذا يعود إلى افتراض قديم وخاطئ على الأرجح يقول بأن هناك علاقة بين الكلمات والأشياء باستقلالية عن ظروف الاستعمال» (تشومسكي، ٢٠١٧، ص١٠١–١٠٣).

ويقول عن الموضوع نفسه «يبدو القول بعلم دلالة مبني على الإحالة المرجعية (باستثناء صياغة الإحالة المرجعية المتعلقة بالتركيب الداخلي) قولًا ضعيفًا. وقد يصح القول إنّ اللغات الطبيعية لها تركيب وتداولية فقط؛ ولها "دلالة" بمعنى وحيد مفاده "دراسة من أي وجه هذه الأداة –التي بنيتها الصورية وإمكانيات التعبير فيها خاضعة للبحث التركيبي– تُستعمل عند مجموعة لغوية معينة» (Chomsky, 2000, p.132).

إنّ اعتراض تشومسكي ليس موجهًا إلى علم الدلالة من حيث هو كذلك، وليس حتى إلى استعمال كلمة «إحالة مرجعية» من الفلاسفة كما رأينا من استعماله له بفهم مختلف في نظرية الربط مثلًا، وإنما إلى هذه النزعة الخارجية فيما يخص الدلالة باستخدام مفهوم «الإحالة المرجعية» من حيث فهمه باعتباره علاقة دلالية ثابتة بين

الكلمات والأشياء في العالم؛ فهو موجه نحو «المبدأ الأساسي للدلالية الخارجية» كما ذكرناه في آخر القسم الثاني، وحديثنا في هذا البحث يخص فهم الدلالية الخارجية لمفهوم الإحالة المرجعية، ما لم يذكر غير ذلك.

من أشهر الأمثلة التي ذكرها تشومسكي في توضيح وجه اعتراضه هو مثال لندن المذكور في كتابه «آفاق جديدة في اللغة والذهن» (Chomsky, 2000)؛ وذلك لتوضيح أن ارتباط الكلمة بإحالة مرجعية تفهم بها معنى الكلمة يرتبط بإشكالات كبيرة، وأهمها اللبس في الإحالة المرجعية للكلمة، كما في (٧) أدناه (قارن Chomsky, 2000, p.37):

(٧) لندن تعيسة، وقبيحة، وملوثة حدَّ أنه ينبغي أن تدمر وتبنى على بعد ٢٠٠ كيلو متر.

فـ"لندن" يظهر أنها تستعمل للحديث عن الناس (تعيسة)، وعن الجو (ملوثة)، وعن المباني (قبيحة)، وعن منطقة لم يبنَ فيها شيء بعد (على بعد ٢٠٠ متر)، وهذا يعارض «المبدأ الأساسي للدلالية الخارجية» من حيث إن لفظة واحدة تستعمل للإحالة إلى أشياء مختلفة استعمالًا منتظمًا ومفهومًا ولا يثير أي إشكال لدى سامع اللغة؛ مما يعارض فكرة وجود إحالة مرجعية ثابتة إلى شيء واحد بعينه لا تختلف باختلاف السياقات.

٣,٢ اللغة الذاتية والمنهجية الغاليلية

إنّ مفهوم الإحالة المرجعية –في نظر تشومسكي– ليس مفهومًا واضحًا يوضع ضمن الدراسة العلمية المنضبطة للغة والذهن، وإنما يصح فهمه في اللغة العادية غير العلمية المتداولة للناس أو ما قد يسمى في أدبيات فلسفة الذهن «علم النفس الشعبي» (Folk Psychology) (ارجع مثلًا إلى Davies & Stone (1995))، مثل قول الناس إن الشمس تغرب وتشرق، وأن طاقتي اليوم منخفضة؛ إلخ. لا يعني ذلك القول «أن نتخلى عن "نظريات" أن المذنب يتجه نحو الأرض، أو أن الشمس تغرب، وأن السماء تظلم، وأن الموجة تضرب الشاطئ ثم تنحسر، [...]، وأن الناس يتكلمون الصينية وليس لغةً رومانسية؛ إلخ، وأن نستبدلها بنظريات أفضل منها» إنّ البحث العلمي له مساراته

الخاصة التي تقود إلى «صورة للعالم تختلف اختلافًا كليًا، وهي صورة لا تؤكد صحة طرقنا العادية في الكلام والتفكير أو تقضي عليها» (Chomsky, 2000, p.115). ووجه اعتراض تشومسكي على مفهوم الإحالة المرجعية لن يفهم على وجهه إلا عند الرجوع إلى فلسفته في اللغة وتصوره لها، وهذا ما سنعرض له فيما يلي من هذا القسم.

لعلّ أبرز ما يلفت نظر الفلاسفة وعلماء اللغة التقليدين عند الحديث عن رؤية تشومسكي للغة هو دراستها من الجانب النفسي أو الإدراكي لدى الإنسان ابتداءً، وهذا ما يختلف اختلافًا بينًا عن نظريات اللغة؛ خصوصًا في النصف الأول من القرن العشرين. فما هي اللغة؟ في نظر الفيلسوف غيلبرت رايل، اللغة أقرب ما تكون إلى حصيلة من الكلمات، والتراكيب، والعبارات المتكررة (Ryle, 1961)، وفي نظر عالم اللغة بلومفيلد هي ظاهرة اجتماعية أولًا، «إنّ حقائق اللغة هي حقائق اجتماعية، وليست حقائق عن سيكولوجيا الفرد» (Bloomfield, 1933)، وستجد مثل هذه الرؤى لدى عديد من الفلاسفة وعلماء اللغة، ولكن الاختلاف الكبير الذي برز مع تشومسكي بروزًا واضحًا على الأقل منذ ستينات القرن العشرين هو أن النظرية اللغوية هي نظرية لا بد أن تفهم ضمن سيكولوجيا الفرد وقدراته الإدراكية؛ فنراه مثلًا يقول في كتابه «جوانب من النظرية التركيبية» (Chomsky, 1965) إنّ «الشرط المسبق لتعلّم الطفل للغة هو أولًا امتلاك نظرية لغوية تحدد شكل النحو المناسب للغة إنسانية ممكنة، وثانيًا، إستراتيجية لاختيار نحو مناسب يتوافق مع البيانات اللغوية الأولية» (ص٢٥) فهو هنا لا يتحدث عن حصيلة من التراكيب والكلمات، ولا عن حقائق اجتماعية؛ بل عن شرط قبلي وفطري لاكتساب اللغة.

فيما بعد، قدّم تشومسكي مفهوم «اللغة الذاتية» (I-Language) تعبيرًا عن تصوره للغة بأنها مفهومية (Intensional)، وداخلية (Internal)، وفردية (Individual)، وهو ما يعارض به «اللغة الخارجية» (E-Language). اللغات الذاتية إجراءات تحوسب اقتران «التمثيلات الداخلية» للصوت (أو أي وسيط آخر، مثل الإشارة) مع «التمثيلات الداخلية» للمعنى في ذهن الفرد. ومن المهم تمييز «اللغة الذاتية» عن مصطلح «لغة الفرد» (Idiolect) المعروف والمتداول في علم اللغة الحديث؛ فـ«لغة الفرد» ما زالت في

نظر تشومسكي «لغة خارجية»، ولكن لا يتحدث بها إلا فرد واحد (وهذا مزلق أقدام في الفهم مثلما نرى مع تايلر بيرج في رده على تشومسكي في Burge, 2003). «اللغة الذاتية» هي إجراءات حوسبية داخلية، وليست سلسلة من الكلمات أو الإشارات أو غيره.

«الفردية» في تعريف اللغة الداخلية تشير إلى مرتكز التمييز بين اللغات: أهو حسب البنية الذهنية الداخلية (فردية) أم حسب علاقات المتحدثين ببعضهم (اجتماعية)؟ وتشكيك تشومسكي في علميّة مفهوم «اللغة الخارجية» نابعٌ من أن اللغات الخارجية تتضمن في تشكلها عوامل تاريخية، واجتماعية، وسياسية عرضية يستحيل أخذها جميعها في الحسبان ضمن نظرية علمية رصينة، ولكن لا ينطبق هذا في حال أخذنا في اعتبارنا البنية الذهنية الفردية (Chomsky, 1986). أما «المفهومية» في تعريف «اللغة الذاتية» فمسعاها توضيح الجانب التوليدي للعبارات والقائم على قواعد معينة، مقارنةً بمن يقول إنّ اللغة «مجموعة من التعابير». أخيرًا، «الداخلية» تشير إلى أن المفهوم معني بما هو داخل الفرد، وليس معنيًا بالجوانب الخارجية كما هو الحال مع فلاسفة الدلالية الخارجية مثلًا.

وما ذكرناه أعلاه فيما يخص الألفاظ غير العلمية ينطبق في هذا الموضع كذلك؛ فلا يفيد ذلك أن مفهوم «اللغة الإنجليزية» أو «اللغة العربية» مفهومٌ بلا فائدة؛ بل هو نقطة انطلاقة مناسبة نعمق بها البحث العلمي مثلما هو الحال مثلًا مع علماء الكيمياء مع مفهوم «النار»، أو علماء الفلك مع مفهوم «غروب الشمس».

حرص تشومسكي هذا على الضبط العلمي الصارم لمفهوم اللغة نابع أساسًا من رؤيته لما هو «العلم الحديث» (Science)، وهي الرؤية التي سُميتْ «المنهجية الغاليلية» (Galilean style/method) وهذه المنهجية هي التي يراها تشومسكي أساس «العلم الحديث» الذي تشكل تشكلًا واضحًا منذ عصر التنوير الأوروبي في القرن السابع عشر، وجوهر هذه المنهجية هو رؤيتها أن النظرية ليست تلخيصًا للبيانات الملاحظة؛ إنما هي وصف وتفسير لبنية الواقع ومبادئه التي قامتْ عليها هذه البيانات؛ مما يستلزم تجريدًا كبيرًا وعدم ضمها لجميع البيانات بالضرورة التي قد تكون بسبب

عوامل متقاطعة مع الظاهرة محل الدراسة (قارن ذلك مع نقاشنا أعلاه عن «اللغة الخارجية») مع قوتها التفسيرية لما تروم تفسيره، وهذه هي المنهجية التي نراها مع علماء الفيزياء في عصر التنوير وما بعده، واعتمادهم الكبير على النماذج التفسيرية الرياضية أكثر من العالم المحسوس؛ أمثال غاليليو (واسم المنهجية نسبة له)؛ إذْ لم ينظر في علم الفلك بعد فحصه الدقيق لكل أنواع حركة الكواكب، ومحاولة تفسيره لها؛ وإنما تركز على بيانات محددة خالية إلى حد بعيد من أي عوامل التفاعل والتقاطع مع ظواهر أخرى، مثل الخلاء شبه الفارغ في الفضاء الخارجي (وعدم تقديمه لتفسير مقنع لعدم طيران الأشياء من كوكب الأرض)، والأمر نفسه ينطبق على علماء الفيزياء مثل نيوتن، وتتعارض هذه المنهجية تعارضًا واضحًا مع المنهجية التجريبية (أو ما قد يسمى «المنهجية البيكونية» نسبة إلى روجر بيكون) التي تشدد على أهمية تفسير جميع البيانات الملاحظة، وبناء النظريات وفقًا لها (ارجع إلى Weinberg, 1976، و Chomsky 1980، ولعرض نقدي لهذه المنهجية ارجع إلى Colins 2023).

٣,٣ من يحيل: الكلمات أم الناس؟

يشدد تشومسكي على أن (٧) أعلاه ليست مجرد حالة استثنائية؛ بل تكاد تنطبق حتى على أبسط الألفاظ التي نستعملها؛ مثل كلمة «نهر»، أو «شخص»، أو «كتاب»؛ إلخ (تشومسكي، ٢٠١٥). لنرَ أمثلة أخرى في (٨) و(٩) (قارن Chomsky, 2000):

(٨)كتبتُ الكتاب في رأسي ثم طبعته على الحاسوب وبعته.

(٩)صبغت الباب باللون الأحمر ثم دخلت منه.

«الكتاب» في (٨) يستعملها المتحدث للإشارة إلى شيء مجرد (أفكار غير مطبوعة) وشيء ملموس (مطبوع ومباع)، و«الباب» تشير إلى شيء يصبغ، وإلى شيء يمكن المرور من خلاله. وحتى كلمة «ماء» التي ناقشها هيلاري بتنام كما عرضنا في القسم الثاني، فليست هي نفسها في نظر تشومسكي «ذرتين من الأكسجين وذرة من الهيدروجين»؛ ففي نظر تشومسكي، هذا خلط بين مقامين في استعمال اللغة: هو يقر بصحة استعمال «الإحالة المرجعية» في حالة واحدة، وهي السياق العلمي؛ حيث يفترض العلماء كيانات نظرية، ويطرحون لفظة ترتبط بهذا الكيان في جميع

السياقات، وهذا متوافق مع «**المبدأ الأساسي للدلالية الخارجية**»، ولكن هذا استعمال اصطلاحي استثنائي لا ينطبق على اللغة الطبيعية البشرية، ويرى في استعمال بتنام «ذرتين من الأكسجين وذرة من الهيدروجين» على أنه هو «الماء» خلطًا بين لغة العلم واللغة الطبيعية. إنّ «الإحالة المرجعية» مناسبة للغات المصطنعة (والاصطلاحات العلمية منها) ولكنه لا ينطبق على اللغة الطبيعية (Chomsky, 2000, p.131).

ولكن ثمة سؤال مهم: إذا رفض تشومسكي القول بوجود إحالة مرجعية في اللغة الطبيعية البشرية، فبمَ يجيب من يقول إنني باستعمالي لكلمة «ماء» فإني أحيل مثلًا إلى ما يتضمنه الكأس الزجاجي أمامي؟ ألا يتوافق ذلك مع «**المبدأ الأساسي للدلالية الخارجية**» ويتعارض مع رؤية تشومسكي؟ غير صحيح. لنتذكر أن «**المبدأ الأساسي للدلالية الخارجية**» مفاده وجود علاقة ثابتة بين «الكلمة» و«الشيء» في العالم الخارجي، وهذا هو محط الخلاف. لا مشكلة مع مقولة الشخص وقوله إن ثمة ماء في الكأس الزجاجي أمامي، وذلك لأن هذا استعمال للغة، وليس افتراضًا بوجود علاقة جوهرية بين الكلمات والأشياء (أي الإحالة المرجعية) وهذا هو ما يعترض عليه تشومسكي. ويظهر أن تشومسكي يتكئ على فيلسوف اللغة العادية بيتر شتراوسن (Strawson, 1950) في تفريقه بين القول إنّ «الكلمات تحيل»، و«الناس يحيلون»؛ فهو يرفض الأول، ويقبل الثاني. الكلمات لا تحيل إلى الأشياء في العالم الخارجي، إنما الناس يستعملون الكلمات للإحالة إلى أشياء في العالم الخارجي، واستيعاب هذا التمييز الدقيق هو مربط الفرس في فهم وجه اعتراض تشومسكي (ارجع مثلًا إلى Chomsky, 2000، وتشومسكي ٢٠١٥).

وهذا يفضي بنا إلى الجانب الموجب الثاني من رؤية تشومسكي في هذا الموضوع، وهو استعمال الناس للكلمات للإحالة إلى الأشياء في العالم الخارجي. ولكن ماذا يستعمل الناس تحديدًا؟ لتوضيح ذلك، لا بد من تقديم خلفية بسيطة للبنيان النظري لما يسميه تشومسكي «الملكة اللغوية» (Faculty of Language). إنّ المفردات المعجمية لها صواتة (Phonology) ومعنى، ويرى تشومسكي أن الملكة اللغوية مرتبطة بنظامين آخرين في الذهن البشري، هما: النظام النطقي الإدراكي الحسي (ويتعلق بإنتاج

الأصوات وغيرها من وسائط إخراج اللغة، وإدراكهما إدراكًا حسيًا) والنظام المفهومي القصدي (ويتعلق بالمعنى اللغوي). والمفردات المعجمية تتضمن تعليمات عن صوتها ترسلها للنظام المفهومي القصدي، وتتضمن تعليمات عن المعنى ترسلها للنظام المفهومي القصدي، وهذه التعليمات هي ما يسميه تشومسكي «سمات» (Features)؛ فالمفردات المعجمية في نظره مجموعة من السمات الصواتية والدلالية (وغيرها من السمات) (ارجع مثلًا إلى Hornstein, 2005، و Chomsky, 1995). فالمفردة المعجمية «كتاب» لها سمات دلالية تستعمل في الإحالة إلى شيء؛ مثل أنها شيء مصنوع، وأنها اسم، والمفردة المعجمية «قارورة» لها سمات دلالية قد تستعمل في الإحالة إلى نوع من أنواع الحاويات، وقد تستعمل في الإحالة إلى محتويات ذلك النوع من أنواع الحاويات (Chomsky, 2000, p.128). قارن مثلًا (١٠) و(١١) لهذين الاستخدامين:

(١٠) رأيتُ قارورة زجاجية على الطاولة.

(١١) شربت القارورة كلها في شربة واحدة.

القول إنّ "قارورة" لها إحالة مرجعية هي الوعاء نفسه يصح في (١٠) ولكن لا يصح في (١١)؛ فالثاني المقصد فيها هو محتويات القارورة. لنضرب مثالًا آخر «هبَ أن في المكتبة العامة نسختين من رواية «الحرب والسلم» لتولستوي، وقد أخذ بيتر نسخة، وأخذ جون النسخة الأخرى؛ فهل أخذ بيتر وجون الكتاب نفسه»؟ (Chomsky, 2000, p.15) إنّ هذا المثال يعد إشكالًا لمن يقول بالدلالية الخارجية في نظر تشومسكي لأنه سيفضي للقول بأن "رواية الحرب والسلم" تحيل إلى ما هو ملموس (النسخة المطبوعة من الرواية) وإلى ما هو مجرّد (الرواية في شكلها غير المتجسد أو المطبوع). ومثله لو أخذنا الجملة (١٢) (قارن السابق):

(١٢) كتاب أحمد في كل مكتبة في أنحاء العالم.

فهنا "كتاب" تستعمل في حديثنا عن شيء ملموس (النسخ المطبوعة)، ولكنها تستعمل للحديث عن شيء مجرّد (موجود في كل مكتبة). فكيف يعقل أن "كتاب" لها إحالة مرجعية لشيء هو ملموس ومجرّد في الوقت نفسه؟ هذا ما أطلقتُ عليه «التضارب الإحالي» (Referential Conflict). فـ"كتاب" في (١٢) له إحالة مرجعية

تحيل إلى شيء في العالم الخارجي (لنسمه "س")، و"س" هذا ملموس ومجرد في الوقت نفسه؛ فهذا سيفضي بنا إلى أن نقول إنّ الناس تعتقد بشيء هو ملموس ومجرد في الوقت نفسه. ويقول تشومسكي في مثل هذه الأمثلة التي تسعى إلى إبراز «التضارب الإحالي»: «لاحظ أن خصائص كلمات مثل "منزل"، و"باب"، و"لندن، و"ماء"، وغيرها لا تفضي إلى أن الناس يعتقدون باعتقادات متناقضة، لا يوجد أي سبب يدعونا لهذه النتيجة إذا تخلصنا من الافتراض التجريبي الذي مفاده أن الكلمات تحيل إلى أشياء بمعزل عن استعمالات معينة، والتي تقيّدها من جوانب دقيقة للغاية» (Chomsky, 2000, p.129).

لا معنى في نظر تشومسكي لسؤال «ما الذي تحيل إليه الكلمة»؛ وذلك لأن المتحدث يستعمل في حديثه سمات دلالية معينة في المادة المعجمية الذهنية ليحيل إلى الأشياء حسب سياق الاستعمال. ففي (١٠) أستعمل "قارورة" للإحالة إلى وعاء معين، وأستعمل "قارورة" في (١١) للإحالة إلى سائل، وقد أستعمل "كتاب" مستفيدًا من سمة من سماتها الدلالية للإحالة إلى نسخة مطبوعة، وقد أستعملها استعمالًا لا علاقة له بهذا الاستعمال مستفيدًا من سمة أخرى من سماتها الدلالية للإحالة إلى شيء مجرّد وغير مطبوع، بل وقد أستعمل السمتين معًا كما في (١٢).

إنّ القول بأن الكلمات تحيل إلى أشياء في العالم الخارجي، و«المبدأ الأساسي للدلالية الخارجية» يلزم منه القول بالـ«التضارب الإحالي» الذي يعزو إلى الناس الاعتقاد بمعتقدات متناقضة كما رأينا في الأمثلة من (٧) إلى (١٢). ولتجنب «التضارب الإحالي» يرى تشومسكي التخلص من مفهوم «الإحالة المرجعية» نفسه، ويقترح «السمات الدلالية» للمفردات المعجمية المتماشي مع نظريته العامة في اللغة، مع رؤية عن استعمال اللغة تعزو الإحالة إلى العالم الخارجي للناس واستعمالهم للغة، وليس إلى الكلمات نفسها.

٣. الموازنة بين النزعتين ومسألة التداولية

٤,١ مجموع الملاحظات على الدلالية الخارجية

في هذا القسم سأدعّم رؤية تشومسكي من جانب فلسفي عام يمسّ التوافق مع النظرية العلمية؛ ألا وهو النظر إلى مسألة الشمولية في تناول مسألة اللغة. ثم سأسلط

الضوء على أحد الأهداف الدلالية الخارجية؛ ألا وهو مسألة نجاح التواصل باللغة نفسها؛ مما يضطرنا إلى توضيح أحد أوجه القصور في تناول تشومسكي لمسألة اللغة، وتوجيه الأنظار لما قد يكون الحل دون التنازل عن مكتسبات الرؤية التي قدمها تشومسكي ومميزاتها.

تلخيصًا، يصح أن نجمل اعتراضات تشومسكي على الدلالية الخارجية في اعتراضه على مفهوم «الإحالة المرجعية» عبر الملاحظات التالية:

(١)**مفهوم «اللغة» نفسه:** ثمة تعارض واضح بين مفهوم تشومسكي للغة الذاتية من جهة، وفلاسفة الدلالية الخارجية من جهة أخرى الذين يتبنون مفهومًا للغة هو مفهوم «اللغة الخارجية» حسب تشومسكي.

(٢)**المنهجية العلمية:** نقطة (١) قائمة على اعتبارات تمس المنهجية المناسبة في تناول الظواهر ودراستها؛ فمنهجية تشومسكي قائمة على ما يسمى «المنهجية الغاليلية» الذي يدّعي أنها أحكم وأدق في الدراسة العلمية للظاهرة، وهذا الاعتبار لا يبدو أنه مأخوذ في حسبان فلاسفة الدلالية الخارجية ومفهومهم للغة.

(٣)**التضارب الإحالي:** القول بالـ«المبدأ الأساسي للدلالية الخارجية» يلزم منه نسبة اعتقادات متضاربة للناس.

الملاحظة (٣) لا يظهر أن لها حلًا مقنعًا عند فلاسفة الدلالية الخارجية، أما في حال تخلينا عن مفهوم «الإحالة المرجعية»، وتبنينا نظرة دلالية حسب الإطار التشومسكي باستخدام السمات الدلالية فالإشكالية لن توجد أساسًا لأن الإحالة تقوم بناءً على سمات دلالية في المفردة المعجمية في ذهن المتحدث، وهو من يحيل في سياق الاستعمال، وليس اللغة.

بالإضافة إلى هذه الملاحظات الثلاث، سأضيف لها الملاحظة (٤):

(٤) التوافق مع نظرية علمية شاملة للغة.

وهي ما سأبينه فيما يلي.

٤,٢ النظرة الشمولية للظاهرة اللغوية وجمل الـ«لمَ لا»

يكاد ينحصر هم فلاسفة الدلالية الخارجية في توضيح دلالة الأسماء (الأسماء العلم في حالة كريبكي، والنوع الطبيعي في حالة بتنام)، أما الدلالية الداخلية –التي قدمناها

هنا على أنها رؤية تشومسكي الفلسفية في الدلالة– متوافقة مع نظرية علمية تأخذ في عين اعتبارها الظاهرة اللغوية ككل، ولا تقتصر على صنف معين من أصناف الكلام. فالدلالية الداخلية متوافقة مع نظرية علمية محكمة تروم تفسير الظاهرة اللغوية بعمومها (وعليه، تهتم بجميع أقسام الكلام والتراكيب وغيرها)، أما الدلالية الخارجية فلا يظهر أنها تهتم بمثل هذا التوافق أساسًا.

وهذا التركيز على صنف معين من الجمل، ومحاولة تفسير الظاهرة اللغوية عامةً بناءً عليها ليس بدعًا على الدلالية الخارجية ورؤية أصحابها للغة؛ إذْ نجد ذلك مثلًا مع فيتغنشتاين الأول وكتابه «مصنّف منطقي – فلسفي» (Wittgenstein, 1921)، وهو نفسه من انتقد ذلك في كتابه «تحقيقات فلسفية» (Wittgenstein, 1953)؛ إذْ قال مثلًا: «من المفيد مقارنة تعدد الأدوات في اللغة وتعدد طرق استعمالها، وكذلك مقارنة تعدد أقسام الكلام والجمل مع ما قاله المناطقة في بُنية اللغة (بمن فيهم كذلك مؤلف كتاب مصنّف منطقي – فلسفي)»[١] (فيتغنشتاين، ت: عبد الرزاق بنور، ٢٠٠٧، ص ١٣٨).

تركيز نظرية تشومسكي على الكشف عن المبادئ المضمرة التي قامت عليها البيانات أفضى كذلك إلى تسليط الضوء على ضرب من البيانات يبدو أنه ما كان من الممكن الالتفاتْ إليها لولا هذه المنهجية، وهو سمّاه راي (Ray, 2020) بيانات الـ«المَ لا»، والمقصود هو تراكيب لغوية لا ينطق بها متحدثو اللغات (فلمَ لا يقع ذلك؟)، وتفسير تشومسكي ومن نسج على منواله لذلك هو لأنها لا تتبع مبادئ «اللغة الذاتية»؛ فهذه البيانات «السلبية» لم تظهر إلا نتيجة لنظريته اللغوية، و«قصر النظر على البيانات الفعلية التي تجمع قبل التنظير كانت ستفوتْ مثل هذه البيانات الحاسمة»

[١] وقال كذلك بعد عرضه لتصور معين في تعلم اللغة: «إنّ من يصف تعلم اللغة بهذه الطريقة يفكر بدرجة أولى، كما يبدو لي، في أسماء من قبيل "طاولة" و"كرسي" و"خبز" وفي الأسماء الأعلام، ولا يفكّر إلا في مرحلة لاحقة في أسماء بعض الأعمال والصفات؛ وهو يفكّر في باقي أقسام الكلام على أنها شيء يمكن معرفته بديهيًا» (نفسه، ص١١٨).

(السابق، ص١٩، وقارن ذلك مع Moro, 2016 ومفهوم «اللغات المستحيلة»). من الأمثلة التي يذكرها راي (Ray, 2020) (ص٢٦-٢٨) على جمل الـ«لمَ لا» ما يلي:

(13) Jim went to the movies with Bill last week.
(14) Jim went to the movies with **who** last week?
(15) **Who** did John go to the movies __ with last week?

(١٣) جملة تقريرية، يمكن أن نصيغ منها سؤالًا يستفسر عمن ذهب مع «Jim» بطريقتين كما في (١٤) و(١٥): في (١٤) استبدلنا الاسم «Bill» بالكلمة الاستفهامية «Who»، أما في (١٥) فقد نقلنا الكلمة الاستفهامية «Who» إلى بداية الجملة، والسؤالان (١٤) و(١٥) مقبولان نحويًا[1]. قارن الجمل الثلاثة السابقة من الجمل التالية:

(16) Mary went with Bill and John to the movies last week.
(17) Mary went with Bill and ***who*** to the movies last week?
(18) *Who did Mary go with Bill and __ to the movies last week?

إنّ (١٧) و(١٨) سؤالين مصاغين من الجملة التقريرية (١٦)، كما هو الحال مع السؤالين (١٤) و(١٥) المصاغين من (١٣)، ولكن ثمة فرق: (١٨) ستعد جملة غير مقبولة نحويًا رغم أنها طبقت الإستراتيجية نفسها التي طبقتها (١٥): لقد نقلت «Who» إلى بداية الجملة. إنّ كانت اللغة لا تعدو كونها مجموعة من التعميمات التي يحفظها المتحدث ويطبقها في سياقات أخرى، ولا علاقة لها بقواعد ضابطة داخلية في ذهن المتحدث؛ فلمَ لا يصح في (١٨) ما صحَّ في (١٥)؟

يشار إلى هذا النوع من الجمل في النحو التوليدي بـ«قيود الجُزر» (Island Constraints) (وكأن بعض المجالات التركيبية جزر معزولة تحجب انتقال بعض العناصر اللغوية) حيث إن انتقال الكلمة الاستفهامية «Who» من موقعها إلى بداية

---

[1] أستعمل هنا «مقبول نحويًا» ترجمة لكلمة «Acceptable». ارجع إلى أحد المراجع التأسيسية في مجال «التركيب التجريبي» (Experimental Syntax) Schütze (1996) لنقاشات حول التمييز بين المقبول وغير المقبول (Unacceptable) والنحوي (Grammatical) وغير النحوي أو اللاحن (Ungrammatical)، وللاطلاع على نقاشات أحدث في المجال ارجع مثلًا إلى Sprouse & Almeida (2017).

الجملة لا يقع في جميع التراكيب، وهذا ما ينطبق على (١٦) التي تحجب هذا الانتقال. ما يهمنا في هذا السياق إنّ (١٨) ما كان سيتم التركيز عليها لولا اهتمام النحو التوليدي بالتراكيب، والانتقال، والجمل الممكنة وغير الممكنة في لغة معينة بناءً على «المنهجية الغاليلية» التي تركز على مبادئ الظواهر وليس جمع البيانات الفعلية؛ إذْ إن التركيز على البيانات الملاحظة الظاهرة فقط لن يفضي إلى ملاحظة مثل هذه البيانات السلبية –كما في (١٨)– التي لا تتماشى مع المبادئ التي تزعم النظرية كشفها لها.

إنّ هذه النظرة الشمولية للغة أفضتْ إلى مفهوم «اللغة الذاتية» المقنن، وأفضتْ كذلك إلى تركيز النظر على الجوانب النفسية الداخلية للغة، وهي المتوائمة مع الدلالية الداخلية التي عرضناها في القسم الثاني، وهذه النظرة الشمولية كشفت كذلك عن مصدر للبيانات اللغوية هو تراكيب الـ«لمَ لا» التي لا يبدو أن هناك نظرية لغوية شاملة متوافقة مع الدلالية الخارجية تفسرها بوجه من الوجوه. وأزعم أن هذا جانب لا يشدد عليه كثيرًا في النقاشات بين الدلالية الخارجية والداخلية تتفوق فيه الدلالية الداخلية على الدلالية الخارجية؛ وذلك من حيث توافق الأولى مع نظرية علمية شاملة بخلاف الثانية.

٤,٣ إشكالية رؤية تشومسكي للتواصل عبر اللغة

كما رأينا في القسم الثالث، المفهوم العلمي الأدق من غيره في نظر تشومسكي من ناحية الصرامة العلمية هو مفهوم «اللغة الذاتية»؛ إذْ يكون موضوع الدراسة هو «اللغة الذاتية» لكل فرد بحسب السمات العامة الثلاث: الفردية، والمفهومية، والداخلية. ولكن إنْ كانت الإحالة المرجعية هي علاقة داخلية ذاتية ولا علاقة لها بالخارج، والكلمات نفسها لا تحيل، بل الشخص نفسه؛ فكيف نفسّر توافق متحدثي اللغة وتفاهمهم الذي يصل إلى درجة عالية من النجاح في التواصل؟ (ارجع إلى Hinzen 2003) لا يظهر لي أن تشومسكي يولي اهتمامًا كبيرًا في الإجابة عن هذا السؤال، ولكن ناقشه باقتضاب في بعض المواضع من أبحاثه؛ إذْ يرى أن نجاح التواصل يتحقق بفضل عوامل عدّة منها أن اللغة الذاتية س قد تكون قريبة من اللغة الذاتية ص (وعوامل أخرى مثل الاعتقادات Beliefs)، وتتفاعل هذه العوامل مع ملكة اللغة وفق استعمال

المتحدثين للتعابير التي تولدها القواعد اللغوية، ولكنه يرى أن دراسة جميع هذه العوامل في نظرية علمية صارمة مستحيل؛ لكثرة العوامل أو الآثار المتفاعلة (Interaction effects) مع بعضها (Chomsky, 2000, p.70). بالإضافة إلى أن تشومسكي لا يتبنى الفرضية التكيفية في نشأة اللغة (التي مفادها أن اللغة تطورت وظهرت تدريجيًا نتيجة لوظيفة التواصل، ارجع مثلًا إلى Jackendoff & Pinker, 2005)، ويعتقد أن اللغة ظهرت نتيجة طفرة معينة في الدماغ (ارجع مثلًا إلى Chomsky, 2002) ولا يرى أن اللغة للتواصل أصلًا، وهذا الرأي (وظيفة اللغة هي التواصل) يتبناه عديد من الفلاسفة (ارجع مثلًا إلى Searle, 1969).

رغم أن إجابة تشومسكي قد تفسر جانبًا من «سوء» التواصل بين البشر في بعض السياقات (فمن المعقول أن توجد إساءات في الفهم وعدم نقل المقصود على وجهه بين الطرفين؛ فلكل شخص لغته الذاتية I-language)؛ إلا أن إجابته تبدو لي –في أفضل الأحوال– ناقصة؛ وذلك لسبب رئيسي هو أن مفهوم تشومسكي لـ«استعمال اللغة» عامٌ بحيث يضم فيه جميع ما لا يوليه اهتمامًا في دراسته النظرية؛ أي، جميع ما ليس «لغة ذاتية». وكثيرًا ما يساوي بين «التداولية» واستعمال اللغة؛ فهما إلى حد بعيد شيء واحد في نظره (ارجع مثلًا إلى Allott & Wilson, 2021). وهذا إشكالي في نظري لأنه لا يتبع منهجية تشومسكي في التعامل مع الظاهرة نفسها؛ أي المنهج الغاليلي. وأقدم مقترحًا هنا مفاده أن تقسيم تشومسكي النظري في تعامله مع الظاهرة اللغوية إلى «لغة ذاتية» و«لغة خارجية»، أو «اللغة» و«استخدام اللغة» (ومن قبلها التقسيم المنهجي المشابه ما بين «الكفاءة» (Competence) و«الأداء» (Performance)، ارجع مثلًا إلى Chomsky, 1965) لا يفيد بالضرورة الحط من المكانة العلمية لدراسة «استخدام اللغة»، كما قد يُستشف من تعليقات تشومسكي نفسه أحيانًا: «يتألف الخطاب الواقعي من شذرات، وبدايات خاطئة للكلام، وقفزات، وإدخال للكلام ببعضه، وغيرها من الظواهر التي لن تفهم إلا على أنها تشويهات لنمط مثالي كامن» (Chomsky, 1962).

لا يبدو أن هناك عائقًا منهجيًا يحول بيننا وبين معاملة «استعمال اللغة» من ناحية علمية كما فعل تشومسكي مع مفهوم «اللغة»؛ فهو قد جرّد الظاهرة من كثير من

العوامل المتفاعلة معها، واستبعد «استعمال اللغة» –وهو في نظره جامع لكثير من العوامل المتفاعلة مع الملكة اللغوية– من اهتمامه النظري، وخلص إلى مفهوم علمي أدق هو «اللغة الذاتية»؛ إذْ يصح كذلك أن نبحث عن مفهوم علمي أدق لـ«استعمال اللغة»، ونجرّده من كثير من العوامل المتفاعلة، ونصل معه إلى أساس من أساسيات استعمال البشر للغة. إن الاستعاضة بمفهوم دقيق لاستعمال اللغة يخص الجانب التواصلي بين البشر (التداولية) عن مفهوم «استعمال اللغة» العام والفضفاض (والمقدم أساسًا لتركيز بحث تشومسكي في بنية اللغة) ليس بالضرورة «تشويهات لنمط مثالي كامن» (السابق)؛ فما ذكره تشومسكي من أخطاء النطق الفعلية لا يفيد امتناع تقديم نموذج علمي يفسر التواصل بين البشر بناءً على نموذج ضمن التداولية (على نهج مبادئ غرايس في المحادثات أو المقاربات الصورية والإدراكية في التداولية على سبيل المثال، ارجع مثلًا إلى Huang, 2014) التي لا تسعى أصلًا لتفسير أخطاء النطق هذه. وعليه، نصل إلى تفسير معقول لنجاح التواصل بين البشر عبر اللغة دون التخلي عن المكتسبات النظرية العامة عند التوليديين، وفي توافق معها، وألا نعامل استعمال اللغة كمجرد مجموعة من العوامل المتفاعلة فحسب. وفي نظري، أرى أن المجال الواعد لتحقيق ذلك هو مجال «التداولية»؛ فالتداولية (رغم تعدد مدارسها وتوجهاتها، ارجع مثلًا إلى Levinson 1983 و Huang, 2014) مجال أضيق من «استعمال اللغة»، وهو ليس «دراسة كل شيء» (Chomsky, 2003) العبارة التي عادة ما يذكرها تشومسكي في معرض نقده لمن يحاول التعامل مع أي شيء له علاقة باستعمال اللغة، وهي إطار منهجي واعد يصح أن نصل معه إلى نجاح التواصل بين البشر باستخدام منهجية علمية دقيقة.

٤. الخاتمة

إنّ مسألة الإحالة المرجعية مسألة محورية في فلسفة اللغة الحديثة، يقول كريبكي: «[...] رؤيتنا حول هذه المواضيع [الإحالة المرجعية وما ناقشه في كتابه] لها عواقب كبيرة لمسائل أخرى في الفلسفة كانت تعدَّ في تقليد الفلسفة التحليلية بعيدة عنها؛ مثل مسألة الذهن والجسد، وما يسمى "أطروحة الهوية". والنزعة المادية في الفلسفة في هذه

الصيغة عادة ما تُضمن الآن تضمينًا دقيقًا في مسائل تتعلق فيما هو ضروري وعرضي في هوية الخصائص؛ وغيرها من المسائل» (Kripke, 1980, pp. 22–23). وقد كان مما سعى إليه هذا البحث إبراز مسار من مسارات التفكير في المعنى اللغوي قد امتاز عن نقاشات «فلسفة اللغة» السائدة وذلك لأنه يضع بعض المسلمات الأساسية لهذا التقليد موضع تساؤل جاد. كما رأينا في هذا البحث، مفهوم «الإحالة المرجعية» تشوبه عدّة إشكالات في نظر تشومسكي، أبرزها ما سميته «التضارب الإحالي» الذي يلزمنا بعزو معتقدات متضاربة إلى الناس، كما بيّنا أن القول بالدلالية الداخلية كما هي عند تشومسكي متوائمة مع نظرية علمية وفلسفية تأخذ في حسبانها ظاهرة اللغة في كليتها، وهذه نقطة تتفوق فيها الدلالية الداخلية على الدلالية الخارجية. وانتهينا إلى تهميش مسألة تشومسكي لمسألة التواصل، وقدمنا اقتراحًا بتقديم إجابة من التداولية متوائمة مع النظرية التشومسكية.

جل فلسفة اللغة التحليلية المعاصرة تقوم على مسلمتين، هما الإحالة المرجعية وشروط الصحة (Truth Conditions) (ارجع مثلًا إلى Lycan (2018) في مجال فلسفة اللغة وإلى Heim, & Kratzer (1998) لمنطلقات نظرية علمية في الدلالة تتبنى هاتين المسلمتين)، وقد ناقشنا في هذا البحث المسلمة الأولى دون التطرق للثانية. يقول تشومسكي عن شروط الصحة: «لا يصح افتراض أن العبارات (بله الجمل) لها شروط صحة، وفي أفضل الحالات تحتمل أمرًا أعقد من ذلك، وهو "مؤشرات الصحة" بوجه من الوجوه» (كما ورد في Pietrosky, 2005). ولعل الاستفادة من بحوث الفيلسوف بول بيتروسكي (مثلًا Pietroski, 2005, 2018) الذي ينطلق ضمن أطر فلسفة النحو التوليدي مفيدةٌ لبحث اعتراضات فلسفة النحو التوليدي وتشومسكي على شروط الصحة في بحوث مستقلة.

كما أن اعتراض تشومسكي على مفهوم الإحالة المرجعية حسبما عرضنا له يقدّم بعض التساؤلات التي تمسّ جوانب تطبيقية بالغة الأهمية مثل القانون. ما دام أن لا معنى في نظر تشومسكي للحديث عن معنى كلمة وما تحيل إليه –باستقلال عن سياقات الاستخدام اللغوي– إذا أسقطنا مفهوم الإحالة المرجعية؛ فبمَ نتعامل مع

الصياغة القانونية والتشريعية القائمة أساسًا على افتراض هذه العلاقة الثابتة بين الكلمات والأشياء واستبعاد أي إمكان للبس في الحقوق والواجبات والعقوبات في الفهم والتفسير بصرف النظر عن السياق؟ لا أعلم عن وجود أبحاث في هذا المجال، ولكن يبدو أنه مجال واعد للبحث والاستكشاف، ويظهر لي أن الإجابة المبدئية هي أن المصطلحات القانونية ينطبق عليها الاستثناء الذي ذكره تشومسكي عن المصطلحات العلمية (القسم ٣،٣ أعلاه)؛ فهي لغة اصطلاحية، وعليه ربما من المستحسن البحث في مثل هذه المجالات الاصطلاحية (وليس العلمية فقط كما يفعل تشومسكي عادةً) التي قد تكون أرضًا للتوفيق بين النزعتين الدلالية الخارجية والداخلية التي ناقشناها في هذا البحث.

المراجع باللغة الإنجليزية

Boghossian, P. (1997). What the externalist can know *a priori*. *Proceedings of the Aristotelian Society, 97*(1), 161–175.

BonJour, L. (2002). Internalism and externalism. In P. K. Moser (Ed.), *The Oxford handbook of epistemology* (pp. 234–263). Oxford University Press.

Burge, T. (1985). Cartesian error and the objectivity of perception. *In R. Grimm & D. Merrill (Eds.), Contents of thought* (pp. 117–136). University of Arizona Press.

Burge, T. (2003).

Burge, T (2013). Some remarks on “Externalisms”. In M.Baghramian (Ed.), *Reading Putnam* (pp. 263–271). Routledge.

Chomsky, N. (1962). Explanatory models in linguistics. *Studies in Logic and the Foundations of Mathematics*, *44*(1), 528–550.

Chomsky, N. (1966). *Cartesian linguistics: A chapter in the history of rationalist thought.* Harper & Row.

Chomsky, N. (1981). *Lectures on government and binding.* Foris.

Chomsky, N. (1986). *Knowledge of language: Its nature, origin, and use.* Praeger.

Chomsky, N. (1995). *The minimalist program.* MIT Press.

Chomsky, N. (2000). *New horizons in the study of language and mind.* Cambridge University Press.

Chomsky, N. (2007). Biolinguistic explorations: Design, development, evolution. *International Journal of Philosophical Studies, 15*(1), 1–21.

Clark, A., & Chalmers, D. (1998). The extended mind. *Analysis, 58*(1), 7–19.

Copleston, F. (1993). *A history of philosophy* (Vol. 1). Image Books.

Davies, M., & Stone, T. (Eds.). (1995). *Folk psychology: The theory of mind debate.* Blackwell.

Frege, G. (1892/1948). On sense and reference (P. Geach & M. Black, Trans.). *The Philosophical Review, 57*(3), 209–230.

Goldman, A. (1979). What is justified belief? *Justification and knowledge*, 1, 23–46.

Hacking, I. (1999). *The social construction of what?* Harvard University Press.

Heim, I., & Kratzer, A. (1998). *Semantics in generative grammar.* Blackwell.

Huang, Y. (2014). *Pragmatics*. Oxford University Press.

Hughes, G. E., & Cresswell, M. (1996). *A New Introduction to Modal Logic.* Routledge.

Jackendoff, R. (2002). *Foundations of language: Brain, meaning, grammar, evolution.* Oxford University Press.

Khalidi, M. A. (2013). *Natural categories and human kinds.* Cambridge University Press.

Kripke, S. (1980). *Naming and necessity*. Cambridge: Harvard University Press.

Levinson, S. C. (1983). *Pragmatics*. Cambridge University Press.

Lycan, W. G. (2018). *Philosophy of language: A contemporary introduction* (3rd ed.). Routledge.

Mill, J. (1843/2002). *A system of logic.* Longman.

Moro, A. (2016). *Impossible languages.* MIT Press.

Pietroski, P. (2005). Meaning before truth. In **John Hawthorne** & **Tamara Dobler** (Eds.), *Contextualism in philosophy: Knowledge, meaning, and truth* (pp. 123–145). Oxford University Press.

Pietroski, P. (2018). *Conjoining meanings: Semantics without truth values.* Oxford University Press.

Putnam, H. (1975). The meaning of "meaning." *Minnesota Studies in the Philosophy of Science*, *7*, 131–193.

Rey, G. (2020). *Representation of language: Philosophical issues in a Chomskyan linguistics.* Oxford University Press.

Robinson, T. M. (1987). *Heraclitus: Fragments: A text and translation with a commentary.* University of Toronto Press.

Schütze, C. T. (1996). *The empirical base of linguistics: Grammaticality judgments and linguistic methodology*. University of Chicago Press.

Searle, J. (1958). Proper names. *Mind, 67*(266), 166–173.

Searle, J. (1969). *Speech acts: An essay in the philosophy of language.* Cambridge University Press.

Speaks, J. (2024). Theories of Meaning. In E. N. Zalta (Ed.), *The Stanford Encyclopedia of Philosophy* (Winter 2024 Edition). Stanford University. https://plato.stanford.edu/archives/win2024/entries/meaning/

Sprouse, J., & Almeida, D. (Eds.). (2017). *The Oxford handbook of experimental syntax*. Oxford University Press.

المراجع باللغة العربية:

تشومسكي، ن. (٢٠١٥). *علم اللغة: مقابلات مع جيمس ماغيلفري* (داود سليمان القرنة، إبراهيم يحيى شهابي، ترجمة)، العبيكان.

تشومسكي، ن. (٢٠١٧). *بنيان اللغة* (إبراهيم الكلثم، ترجمة). جداول.

فيتغنشتاين، ل. (٢٠٠٧). *تحقيقات فلسفية* (عبد الرزاق بنور، ترجمة)، المنظمة العربية للترجمة.